الحياة الثقافية والعلمية في السودان

(دراسة تاريخية عن التعليم في العهد التركي)

د.خوجلي أحمد صديق*

مقدمة

تعتبر دراسة الحياة الثقافية والتعلمية من المداخل الحضارية والتاريخية المهمة لمعرفة السمات العامة لعصر من العصور ومن ثم الاطلاع على حياة شعب من الشعوب بجانب العوامل الأخرى السياسية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها .

ويعتبر دخول محمد علي وأبنائه إلى السودان مرحلة فاصلة ومهمة في تاريخ هذه المنطقة حيث أنّ حكومة محمد علي هي التي أعطت السودان حدوده الجغرافية المعروفة اليوم كما أنها سعت لتوحيد جميع أهل السودان تحت مظلة إدارة واحدة لأول مرة في تاريخ هذه المنطقة.وقد قام محمد علي وأبناؤه من بعده بدور مهم في الحياة العلمية والثقافية حيث أنهم شجعوا هجرة طلاب العلم إلى مصر للدراسة بها كما أنهم عملوا على فتح المدارس بالسودان.

ولذلك رأيت أن أكتب في هذا الموضوع متعرفاً على الدور الشعبي الذي قام به المجتمع في دفع عملية التعليم ونشره ودور المساجد والخلاوي في نشر العلم الشَّرعي بين الناس تحفيظاً لكتاب الله ونشراً للعلوم الإسلامية .وكذلك تمت الإشارة إلى الدور الرسمي والمتمثل في فتح المدارس أو تشجيع طلاب العلم والعلماء وإنشاء الروابط العلمية والثقافية بين مصر والسودان .وقد تتبعت مسيرة التعليم في السودان قبل عصر محمد علي وبعده ثم تعرضت لدراستها في عهود عباس الأول ثم محمد سعيد ثم إسماعيل .

التعليم في السودان قبل عصر محمد علي :

دخلت الثقافة العربية الإسلامية إلى السودان عبر مداخل أربعة هي مصر والحجاز واليمن والمغرب . ولقد كان ملوك سنار ودارفور على علاقة طيبة بمصر وذلك بحكم الجوار وباعتبار أن مصر كانت تمثل واحداً من طرق دخول الإسلام واللغة العربية إلى السودان .وكان الملك بادي المعروف بسيِّد القوم أحد ملوك سنار الذين كانوا على صلة بعلماء مصر، وكان يرسل إليهم الهدايا واشتهرت مناقبه عندهم حتى أنهم مدحوه بقصائد عدة[1].

---

* أستاذ مشارك ، معهد إسلام المعرفة ، ودمدني ،السودان.

[1] عبد المجيد عابدين – تاريخ الثقافة العربيه في السودان منذ نشأتها الي العصر الحديث – دار الثقافة للطباعة والنشر بدون تاريخ ص 56 .

وقد أشار كاتب الشونة بصفة خاصة إلى قصيدة عمر المغربي أحد علماء الأزهر في مدح الملك بادي والتي تحتوي على أكثر من مائة بيت[2].والظاهر أنّ الصلات الثقافية بين مصر ودولة سنار كانت تتم عبر طريقين :

(1) هجرة الطلاب السناريين للدراسة في الأزهر الشريف ثم العودة إلى أوطانهم لينشروا معارفهم العربية والإسلامية بين أهليهم .

(2) هجرة علماء مصر إلى سنار والإقامة هناك بقصد نشر معارفهم بين السكان وقد عبَّر عن هذه الصلة أحد الباحثين بقوله : " وقد ظل الفونج إلى أن دالت دولتهم يعتمدون على مصر في غذائهم الروحي، فدرس نخبة من أبناء هذه الدولة في الأزهر الشريف وعادوا إلى بلادهم ينشرون بها ما تلقوه من علوم ومعارف دينية إسلامية . ووفد على البلاد كذلك بعض الفقهاء من مصر يحيون بها دراسة الشَّرع الحنيف، مجرداً من تلك البدع والخرافات التي لصقت به[3].

ويشير كاتب آخر إلى دور الفونج في نشر الثقافة العربية الإسلامية بقوله :

"ولقد كان لدولة الفونج فضل كبير في نشر الثقافة العربية الإسلامية ففي عهدهم انتشرت الخلاوي في بقاع السودان المختلفة ومن مآثر ملوكهم أنهم عنوا بالإسلام واللغة العربية، ومن مظاهر تلك العناية أن قربوا إليهم كثيراً من العلماء وأغروهم بالهجرة إلى سنار فتجمع حولهم طلاب العلم من نواحي السودان المختلفة ومن خارجه، كذلك أقطعوا لهم الكثير من الضياع الواسعة في أماكن متفرقة من البلاد وأجزلوا لهم الهدايا وكانوا لا يردون لهم شفاعة – بل جعلوهم أهل مشهورتهم، ولم يقف جهد الفونج عند هذا الحد، بل أنه في زمنهم بدأت دراسة العربية الفصحى تجد أذناً صاغية وعرفت صلات أدبية بين ملوك الفونج وأدباء مصر[4].

ومن أوائل الطلاب السُّودانيين الذين نزحوا إلى مصر لطلب العلم الشيخ محمود العركي الذي يعتبر أول من نشر علوم الدين في جهات النيل الأبيض . إذ لم يجد حين قدومه من مصر مدرسة علم ولا

---

[2] أحمدين الحاج أبو علي – مخطوطة كاتب الشونة من تاريخ السلطنة السنارية والادارة المصرية – تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل – دار احياء الكتب العربية 1961م ص 11.

[3] د. محمد فؤاد شكري – صفحة من تاريخ السودان الحديث – مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ،العدد الثامن من المجلد الثاني ديسمبر 1946م ص 27 .

[4] د. صلاح الدين المليك – شعراء الوطنية في السودان – دار التأليف والترجمة والنشر _ جامعة الخرطوم 1975م ص 34.

مدرسة قرآن، ويقال أنّ المرأة يطلقها الرجل ويتزوجها غيره في يوم طلاقها من غير عدة [5] فأنشأ الخلاوي لتحفيظ القرآن وتدريس علوم الدين وكان له بين الخرطوم والكوة ثلاثة عشر مدرسة[6] .

كذلك هاجر إلى مصر أولاد جابر الأربعة وهؤلاء يرجعون نسبهم إلى الشيخ غلام الله بن عائد اليمني . ويبدو أن قدومهم إلى مصر كان بعد قدوم الشيخ محمود العركي .

وبعد عودتهم من مصر سكن أحدهم وهو الشيخ إبراهيم بن جابر المعروف بالبولاد قرية ترنج ودرس فيها خليلاً والرسالة . وهو أول من درّس خليل ببلاد الفونج وشدت إليه الرحال . ودراسته لخليل تتم في سبع ختمات وعلَّم فيها أربعين تلميذاً صاروا كلهم علماء.

ومن الطلاب الذين وفدوا على مصر وكان لهم شأن في نشر علوم الدين في السودان الشيخ محمد المجذوب الذي ينتمي إلى عشيرة المجاذيب، التي كانت ذات أثر كبير في نشر الثقافة الدينية في البلاد وكان الكثير من أبنائها يرحلون إلى القاهرة أو مكة طلباً للعلم، ثم يعودون لمتابعة رسائلهم في بناء المساجد وإنشاء الزوايا لتصبح مدارس ومعاهد للتعليم يفد إليهاالطلاب من كافة الآفاق[7] .

وبصفة عامة فإنّ من يراجع كتاب الطبقات لمؤلفه محمد النور بن ضيف الله يجد ظاهرة الهجرة إلى مصر واضحة جداً .وقد ذكر لنا المؤلف مجموعة من الشيوخ الذين رحلوا إلى مصر وأخذوا العلم من شيوخ الأزهر . ويلاحظ أنّ هجرة الطلاب إلى مصر قد قلت في أواخر عصر الفونج بسبب الكوارث والمجاعات التي أصابت المجتمع، إضافة إلى ذلك حالة العزلة التي فرضها حكام الفونج في آخر عهدهم وبذلك انقطعت صلتهم بالعالم الخارجي[8].

أما الطريق الثاني لنشر الثقافة العربية الإسلامية في السودان وأعني به هجرة العلماء المصريين إلى السُّودان، فمن العلماء الذين وفدوا على السُّودان في عهد الفونج الشيخ محمد القناوي تلميذ الشيخ سالم السنهوري الذي نزل ببربر وبنى بها مسجداً . ومن ذرية هذا الشيخ نبغ حفيده الشيخ محمد أكداوي الذي جلس للتدريس بمدينة شندي .

كذلك قدم إلى السُّودان في عهد الفونج الشيخ محمد بن قرم الكيماني الذي استوطن بربر إلى أن توفى بها، وأخذ عنه العلم عدد كبير من شيوخ السُّودان .كما وفد إلى السُّودان كذلك من مصر الشيخ جاد الله الشكري الذي وصفه صاحب الطبقات بأنه كان ورعاً تقياً زاهداً عابداً متواضعاً .

---

[5] محمد النور ضيف الله – كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فسي السودان – تحقيق وتعليق الدكتور يوسف فضل – الطبعة الثالثة 1985 – دار التأليف والترجمة والنشر جامعة الخرطوم ص344.

[6] محمد فوزي مصطفى عبد الرحمن – الثقافة العربية وأثرها في تماسك الوحدة القومية في السودان المعاصر – الدار السودانية 1972م ص 34 .

[7] المرجع السابق ص36 .

[8] انظر المرجع السابق ص37 .

ويلاحظ قلة العلماء المصريين الوافدين إلى السُّودان في عهد الفونج وربما يرجع ذلك إلى صعوبة المواصلات وخطورة الطريق وعدم استتباب الأمن، إضافة إلى جشع الخبراء والأدلاء الذين يتحكمون في المسافرين .

والظاهر أنّ لهؤلاء العلماء الذين وفدوا من مصر دور كبير في تذهيب أهل السودان بالمذهب المالكي خاصة وأن أهل صعيد مصر يتمذهبون بهذا المذهب، والصلات بين شمال السُّودان وصعيد مصر لا تحتاج إلى برهان .

ويرى بعض الباحثين أنّ هذا المذهب قد جاء إلى السودان مع الموجات الثقافية التي قدمت من غرب أفريقيا وحوض بحيرة تشاد وفي اعتقادي أن هذا الرأي يمكن أن يكون صحيحاً ولكن الدور المصري لا يمكن تجاهله في هذا الأمر وذلك لأنّ علاقة مصر بالسودان كانت أقوى من علاقة السودان بغرب أفريقيا .

مدارس السُّودان في ذلك الوقت :

في بحثه عن دور العلماء في السودان قال الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم عن مدارس السُّودان في ذلك الوقت :" أما مدارس العلم فتقول الأخبار بأنها بدأت بمدرسة غلام الله بن عائد في دنقلة في القرن الرابع عشر ورغم اننا لا نعرف إلا القليل عن هذه المدرسة إلا أنها بلا شك قد وضعت الأساس لمدارس دنقلة الكثيرة فيما بعد . وبعد انقطاع قرنين من الزمان جاءت مدرسة أولاد جابر بتأثيرات مصرية يحكم أن مؤسسها تلقى تعليمه في مصر . والمرء يعجب لهذه الفجوة الزمنية الطويلة بين هذه المدرسة والتي قبلها . وأنا لنكاد نميل إلى القول بأن حركة المدارس واصلت سيرها وأن لم تصلنا أخبارها . ولقد بدأت مدرسة أولاد جابر في سنة 1552م وانتهت في سنة 1614م وكانت بجزيرة ترنج قرب كاسنجر بديار الشايقية وقد اختيرت هذه الجزيرة النائية مقراً لتكون المدرسة منقطعة للعلم وبعيدة من الحكام وطرق القوافل وذلك بعكس مرابط[9] الصوفية التي كانت تقام على طريق القوافل . ولعلنا نلحظ هذا الفرق فالحركة الصوفية تتجه نحو الجمهور وتتصل بمعابر القوافل التجارية بينما يتجه العلم نحو الخاصة بعيداً عن الضوضاء .

لقد وضعت هذه المدرسة بعض التقاليد منها الدراسة المنتظمة وفق منهج مقرر من العلوم الإسلامية تدرس في أوقات محددة، وفي فصول للدراسة تجاورها مساكن الطلبة وهي بعيدة كل البعد عن نفوذ الحكام وتأثير العواصم والمدن ليقبل الطلبة على العلم ويتفرغوا له تفرغ أهل الأربطة للعبادة .

ومن تقاليدها أيضاً أنّ المعلم يعطي العلم لمن يرغب تطوعاً لوجه الله ولا يطلب مقابله شيئاً. ولكن التطوع من أجل العلم كان يقابله إحسان الجميع بالعطايا وهكذا يشكل العالم بنشر العلم خدمة للدين ويتكفل المجتمع بحاجاته وبما يصرفه على طلبته" .

---

9 الصحيح أربطة جمع رباط أما مرابط فهي جمع مربط .

"ومدرسة نوري التي أنشأها عبد الرحمن ولد حمدتو الخطيب تفرعت من مدرسة أولاد جابر، وعمرت لأكثر من قرن وخرجت أجيالاً من العلماء وكان من مبرزيها حمد الأغبش وإبراهيم بن عبودي الفرضى وقد أسسا مدرستين مستقلتين، وحمد المجذوب مؤسس مدرسة الدامر، وعبد الرحمن النويري مؤسس مدرسة أربجي .

"ومن الذين أخذوا العلم من مدرسة أولاد جابر أبو إدريس العركي ويعقوب بان نقا، والشيخ صغيرون مؤسس مدرسة القوز، وهو أستاذ أرباب بن علي الخشن المشهور بأرباب العقائد والذي تخرج على يديه أعداد غفيرة من العلماء – نذكر منهم حمد أم مريوم وخوجلي عبد الرحمن وفرح ولد تكتوك" .

وبعد أن أفلت مدارس الشايقية جاءت مدارس الأبواب التي أمتدت من مقرات إلى شندي وكان أهمها مدرسة القوز ومدرسة الغبش ومدرسة الدامر والمدرسة الأخيرة ترتبط بطريقة صوفية هي المجذوبية، مؤسس هذه المدرسة هو نفسه مؤسس الطريقة . أما مدرسة الغبش فكانت معادية عموماً للطرق الصوفية وقد ركزت على علوم القرآن".

"وإلى الجنوب من الأبواب تأتي مدارس قري وقد تميزت أولاً بتفرد فقهاء المحس والذين انتشروا من جزيرتهم توتي، وأنشأوا عدداً من المراكز الدينية كما تميزت بعلاقتها الوطيدة بمشيخة العبدلاب، الأمر الذي جعل إقبالها نحو الأحوال الشرعية والفتاوي والأحكام المتعلقة بملكية الأرض أمراً ملحوظاً، لقد كرس قدر كبير من الجهد نحو خدمة الدولة وشئون المتقاضين . وأشهر مدارس قري مدرسة أرباب العقائد والتي بدأ بها عمران الخرطوم . لقد تعلم في هذه المدرسة الآلاف .

أما الشيخ فرح ولد تكتوك فقد اتخذ خطاً مغايراً لعادة الفقهاء وهاجم الكثير من هذه العادات، واتخذ الشيخ حمد ولد أم مريوم مساراً توحيدياً متشدداً ونادى بالالتزام المنضبط بالكتاب والسنة . ومدرسة ود عيسى الخزرجي في كترانج ومن بعد في المسيد كانت ذات تأثير عظيم وقد لعب خريجوها دوراً كبيراً في تاريخ القضاء ."وقامت في الجزيرة مدارس وكانت متأثرة بقربها من قصبة الدولة، وبالعلائق التجارية ولعل من أهم مدارسها مدرسة محمد العركي في النيل الأبيض . مما ذكرنا يمكن أن نلاحظ عدة ملاحظات :

1- أنّ اللبنة الأولى للمدارس قد وضعت في الشمال حيث المجتمع المستقر .
وأنّ هذه اللبنة كانت متأثرة بمصر بحكم ثقافة وتعليم المؤسسين لها .

2- أنّ اتساع المدارس قد اتخذ وجهة جنوبية مع النيل في خط مع المجتمع المستقر وقد ازداد نشاطها كلما اقتربنا من مركزي مشيخة العبدلاب في قري والحلفاية أما مدارس سنار فلم يكن لها ذلك القدر من الشهرة وربما كان ذلك بسبب نفوذ الطرق الصوفية الكبير الذي كان يحد من نفوذ المدارس .

3- كان المعلم يقوم بدوره تطوعاً لخدمة الدين بقصد الثواب وأن المجتمع كان يقوم بالانفاق على المعلمين والطلاب خدمة للدين وبقصد الثواب أيضاً .

4- هذه المدارس لم تكن معزولة عن المجتمع وما يجري فيه وانما كانت تؤثر وتتأثر وهكذا نجد اقبالها نحو الفتيا وأمور الحكم كلما اقتربت من مراكز الحكم[10] .

هذا ما كان عليه أمر التعليم في سلطنة سنار، أما دارفور فقد وطدت صلاتها الثقافية مع تلك الدويلات والإمارات التي قامت في وسط السُّودان الغربي . وانتقلت إليها الثقافة الإسلامية من أفريقيا الشمالية والغربية .

وبالرغم من ذلك فقد ذكر الانجليزي براون وهو أحد الرحالة الأجانب والقلائل الذين استطاعوا الإقامة بدارفور ردحاً من الزمن في أوائل القرن الثالث الهجري وأواخر القرن الثامن عشر الميلادي، أنه كان يوجد بدارفور وقتذاك بعض الفقهاء الذين تلقوا العلم في القاهرة ، ثم أكّد هذا القول محمد بن عمر التونسي في رحلته المسماة بتشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان[11] .

التعليم ومناهجه في هذه المرحلة :

إذا نظرنا إلى الثقافة العربية الإسلامية في الأقطار المجاورة للسُّودان قبل ضمه للإدارة المصرية نجد أنّ هذه الثقافة قد دخلت في طور التقليد والاضمحلال . فالدراسة في الأزهر – مركز الثقافة في البلاد الإسلامية – موجهة في أغلبها إلى العلوم النقلية، وما يدرس من العلوم العقلية كالمنطق أو الطب أو الفلك إنما كان يدرس دراسة آليه القصد منها حفظ المسائل والجدل اللفظي دون تجديد أو استنباط لقواعد جديدة .

ولذلك اتجهت الدراسة إلى العلوم المقصودة لذاتها كعلوم الفقه والتوحيد والتصوف. وقد سادت في العالم الإسلامي – وقتذاك – مذاهب الصوفية التي شجعتها الدولة العثمانية وسيطرت على عقائد الناس وتفكيرهم وامتزجت بالدراسات الإسلامية وصار الناس يقسمون شريعة الله إلى علم باطن وعلم ظاهر، بل إن بعضهم اعتبر أن علم الباطن حسب زعمهم هو العلم الحقيقي .

وقد تأثرت الثقافة الإسلامية بما يجري في العالم الإسلامي وإذا رجعنا لكتاب الطبقات لابن ضيف الله لوجدنا أن أهم العلوم التي لقيت عناية كبيرة هي علوم القرآن والفقه ولواحقه مثل علم الميراث والتصوف[12]. "والظاهر أنّ أول ما وجهت إليه العناية من هذه العلوم القرآن الكريم وأول مظهر لذلك هو حفظه، ولذلك كان الطلاب يتعلمون القراءة والكتابة عرضاً أثناء حفظهم للقرآن ولعل منشأ ذلك ما ذكره

[10] أنظر محمد إبراهيم أبو سليم – دور العلماء في نشر الإسلام في السودان .. المنشور في المجموعة الأولى من أبحاث معالم تاريخ السودان – دار الفكر للطباعة والنشر – بدون تاريخ 76 – 77 .

[11] أنظر محمد فؤاد شكري – مرجع سابق ص 27 .

[12] أنظر محمد فوزي مصطفى – الثقافة العربية – مرجع سابق ، ص 47 .

ابن خلدون أنّ دراسة القرآن انما تقدمت في هذه المرحلة ايثاراً للتبرك والثواب وخشية ما يعرض للولد من جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن"[13] .

وإلى جانب حفظ القرآن نشطت الدراسات القرآنية التي تعين على حفظه حفظاً جيداً مثل علم التجويد والقراءات . ونبغ في هذه العلوم بعض العلماء مثل الشيخ محمد عيسى سوار الذهب والشيخ سعد الكرسني الذي كان شديد الرياضة لتلاميذه حريصاً على معرفتهم للشد والهمز والقلقلة والاظهار والادغام والغنة ومعرفة الوقوف من تام وكافٍ وحسن[14] .

غير أنّ أهم ما يلاحظ على الدراسات القرآنية أنّ العلوم التي كانت تساعد على فهم معاني القرآن وتدبر آياته مثل علم التفسير لم تجد عناية كبيرة في ذلك الوقت ولذلك كان بعض الطلاب يحفظون القرآن من غير اهتمام بمعانيه . كما أنه لم تكن هناك مصاحف مكتوبة فكان المدرس يملي من الذاكرة والطلاب يكتبون على ألواح من الخشب تمحى بعد الحفظ وبذا كان الطلاب يتعلمون القراءة والكتابة أثناء حفظهم للقرآن كما سبقت الإشارة .

أما علوم القراءات فقد كان مدار تدريسها على كتاب الشاطبية لمؤلفه ابي القاسم بن خيرة الأندلسي، وكانت أهم القراءات الشائعة عند أهل السُّودان هما قراءة ورش في نواحي دارفور وكردفان وأبي عمر الدوري في دنقلا والدامر والخرطوم، أما حفص فهي أقل القراءات انتشاراً في السُّودان[15] .

يلي القرآن وعلومه في الأهمية علم الفقه ومن يرجع إلى كتاب الطبقات يجد أنّ رسالة ابن أبي زيد القيرواني ومختصر خليل بن اسحاق والأخضري في الفقه المالكي وجدت عناية كبيرة من جمهرة المتعلمين وإلى جانب كتب المالكية كانت تدرس كتب الشافعية وخاصة في أربجي التي نبغ فيها مجموعة من رجال الفقه الشافعي مثل القاضي دشين والشيخ شمو بن محمد عدلان .

وإذا نظرنا في ثقافة هؤلاء العلماء الفقهية نجد أنّ بعضهم قد وصل درجة لا بأس بها في علم الفقه‘ وبعض هؤلاء المشايخ كانت لهم مشاركة في التأليف في الفقه، ودراية بالأحكام والفتاوي، وكثيراً ما نجد صاحب الطبقات يصف بعض الفقهاء بقوله: "فهو مرجح التصنيف على التدريس" .

ولاحظ بعض الباحثين أنّ هذه المستوى لم يكن يمثل التحصيل العلمي الشائع عند معظم المتعلمين ولكنه يمثل تحصيل الطبقة الممتازة من العلماء[16] .

كذلك اهتم العلماء بجانب آخر من الدراسات الفقهية فوجهوا عناية شديدة إلى علم الميراث والفرائض وقد نبغ في هذا العلم مجموعة من العلماء أشهرهم الشيخ إبراهيم بن عبودي المشهور

---

[13] أنظر عبد المجيد عابدين – تاريخ الثقافة العربية في السودان – مرجع سابق ، ص86 .

[14] أنظر محمد فوزي مصطفى – الثقافة العربية – مرجع سابق ،ص 49 .

[15] أنظر المرجع السابق ص 50 .

[16] أنظر المرجع السابق ص 51 .

بالفرضي، الذي ألف الحاشية المشهورة . ومرد عنايتهم بهذا العلم ترجع إلى حاجتهم الضرورية لهذا الفن في تقسيم التركات[17].

وإلى جانب علوم القرآن والفقه ازدهرت دراسة التوحيد الذي تطلق عليه المصادر علم العقائد ونبغ فيه مجموعة من العلماء منهم الشيخ أرباب بن علي الذي ألف كتاباً في أركان الإيمان وأسماء الجواهر. والظاهر أنّ مدار علم التوحيد كان على كتاب السنوسية وشروحها ولذلك نشطت حركة تأليف الحواشي والشروح حولها مما يدل دلالة واضحة على انتشار هذا العلم ورغبة الطلاب فيه، فألّف الشيخ علي بري شرحاً على السنوسية كما كان للشيخ مكي النحوي الشروح الجليلة منها شرحه الكبير على السنوسية في أربعين كراساً وشرحه الصغير في عشر . ومن العلماء الذين أسهموا في حركة التأليف في علم التوحيد الشيخ محمد أكداوي بن الشيخ محمد المصري الذي ألّف حسب عبارة صاحب الطبقات "كتباً شأنها أن تكتب بمداد الذهب" منها أربعة شروح على أم البراهين، العمدة التي عم النفع بها في سائر الأقطار والوسط والصغير والحاشية التي هل من أجل مؤلفاته .

وإلى جانب علوم القرآن والفقه والميراث والتوحيد يتردد ذكر علوم أخرى في الطبقات مثل علوم الحديث ومصطلحها والتفسير . على أن معظم هذه المؤلفات عبارة عن مخطوطات أكثرها لم يصل إلينا ولم نقف على مطبوع منها سوى مؤلفات أحمد بن عيسى الخزرجي الأنصاري . وكان ذلك عمل علمي جليل يدل على مدى الاهتمام بالدراسات الإسلامية والعربية في ذلك العهد . كما يدل على نوع التعليم الذي كان يتلقاه الطلاب وقتئذ . وكما يدل كذلك على مستوى هذا التعليم"[18] .

ويرى باحث آخر أنّ الكتب المتداولة بين علماء السُّودان كانت قليلة لبعد السودان عن مراكز التأليف وارتفاع تكلفة هذه الكتب على علماء السُّودان ولذلك ضعفت ثقافتهم العامة ولم يكن لهم إقبال كبير على التأليف، وقد أورد صاحب الطبقات أغلب ما ألّفوا وهو عبارة عن حواش وشروح .

وعموماً كان العالِم السوداني معلماً وقارئاً ولم يكن مؤلفاً . وعلى ما يبدو فإنّ أكثر ما تطارح فيه علماء السُّودان كان حول البن والتبغ إذ ذهب البعض إلى تحريم هذا أو ذاك بينما ذهب الآخرون إلى أنه حلال[19] . ولعل هذه الملاحظة لا تنطبق على السُّودان وحده في هذه الفترة فقد ضعفت الثقافة الإسلامية في معظم الأقطار المسلمة بفعل التقليد وقفل باب الاجتهاد .

التعليم في السُّودان في عصر محمد علي باشا :

يعتبر محمد علي باشا مؤسس النهضة التعليمية في مصر الحديثة حيث أنشأ عدداً من المدارس منها مدرسة الهندسة في سنة 1816م ومدرسة المهندسخانة ببولاق في سنة 1834م ومدرسة الطب في سنة

---

[17] نفس المرجع ،ص 51 .

[18] أنظر د . عز الدين الأمين – تراث الشعر السوداني – معهد البحوث والدراسات العربية – القاهرة 1969م – ص 14.

[19] أنظر د . محمد إبراهيم أبو سليم – دور العلماء في نشر الإسلام في السُّودان- مرجع سابق ص 80 .

1827م ومدرسة الصيدلة والولادة ومدرسة الألسن في سنة 1836م ومدرسة المعادن بمصر القديمة في سنة 1834م ومدرسة المحاسبة بالسيدة زينب في سنة 1837م ومدرسة الفنون والصنائع في سنة 1839م . كما اهتم بارسال البعثات إلى مصر وأوروبا وخاصة إلى فرنسا وذلك بقصد الاستفادة مما انتجته الحضارة الأوروبية في مجال التعليم[20].

وعندما ضم محمد علي السُّودان إلى أملاكه في سنة 1821م اهتم بأمر التعليم في السُّودان – ففي البداية نجد أنه قد أرسل مع حملة الفتح ثلاثة من العلماء المصريين هم القاضي محمد الأسيوطي الحنفي والسيد أحمد البقلي الشافعي والشيخ السلاوي المغربي المالكي . ووهب كلاً منهم خلعة سنية وخمسة عشر كيساً (الكيس خمسمائة قرش) وأوصاهم أن يحثوا أهل البلاد على الطاعة بلا حرب بحجة أنهم مسلمون وأنّ الخضوع لجلالة السُّلطان أمير المؤمنين واجب ديني[21] . وقد مات في السُّودان القاضي محمد الأسيوطي وتولى القضاء الشيخ أحمد البقلي وكان المفتي هو السيد أحمد أفندي السلاوي [22] . وقد قدر للقاضي السلاوي أن يلعب دوراً مهماً في السودان فهو مالكي المذهب مثل أغلب السُّودانيين ويبدو أن الغيرة المذهبية واندماجه في المجتمع السُّوداني بالمصاهرة والصداقة دفعته إلى الحماس في خدمة علماء السُّودان . فقد شجع مدارس السُّودان وخلاويه وأجرى عليها الجرايات وارتبط مع بعض العلماء بحبل الود والصداقة وكان هو الذي فتح الباب أمام خريجي مدارس السُّودان للالتحاق بالقضاء وبوظائف الدولة عموماً وقد كان ذلك فتحاً مهماً . وقد تعهد بعض علماء السُّودان بالتشجيع على الكتابة . فهو الذي كان وراء تأليف تاريخ سنار إذ شجع أحمد أبو علي كاتب الشونة على تأليفه ثم دفعه إلى الزبير ود ضوة وإبراهيم عبد الدافع والأمين الضرير فنظر كل منهم فيه وأدخل فيه ما أدخل . وقد دفع إبراهيم عبد الدافع فجعل من ذكرهم ود ضيف الله في طبقاته ومن جاءوا بعده في أرجوزة ثم تولى هو شرح الأرجوزة . وهكذا عرض السلاوي طبقات أولياء السُّودان بعيداً عن مبالغات وشطحات الطبقات"[23].

لقد قام السلاوي بدور مهم عندما فتح لعلماء السُّودان العمل في مجال دولاب الحكومة غير أنّ ذلك ربط هؤلاء بنظام الحكم، وجعل اعتمادهم على ما يتلقونه من المرتبات مما أفقدهم الحرية التي كانوا يتمتعون بها وأضر بمكانتهم الاجتماعية"[24] .

---

[20] لمعرفة تطور النهضة التعليمية في مصر انظر عبد الرحمن الرافعي – عصر محمد علي ،مكتبة النهضة المصرية 1956م وأحمد عزت عبد الكريم – تاريخ التعليم في عصر محمد علي ، مكتبة النهضة المصرية 1938م .

[21] أنظر نعوم شقير – تاريخ السُّودان – تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم دار الجيل – بيروت 1981م ص 196 .

[22] أنظر مخطوطة كاتب الشونة – مرجع سابق ص 89 – 90 ومحمد سليمان – دور الأزهر في السُّودان – الهيئة المصرية العامة للكتاب 1985م ص 55 .

[23] د . محمد إبراهيم أبو سليم – دور العلماء في نشر الإسلام في السُّودان – مرجع سابق ص 81 .

[24] المرجع السابق ص 82 .

وبضم محمد علي السُّودان إلى أملاكه أصبح وادي النيل كله في وحدة إدارية جعلت الاتصال الثقافي بين شطري الوادي أكثر التحاماً حيث فتحت أبواب الأزهر لعدد أكبر من السودانيين ويلاحظ نشاط هجرة الطلاب السُّودانيين إلى مصر في هذه الفترة[25] .

كذلك وفي أوائل العهد التركي في السُّودان نسمع عن هجرة بعض العلماء المصريين إلى السُّودان ذلك أنّ سياسية محمد علي كانت تهدف إلى توثيق العلاقات الدينية أولاً قبل كل شئي بين البلدين " [26] . ويعتبر عصر محمد علي بداية طبيعية لنشر التعليم الحديث بين أبنائه وذلك بوسيلتين إما عن طريق بناء المساجد في عدد من البلاد السُّودانية أو عن طريق السماح للسُّودانيين بالالتحاق بالآزهر الشريف لتكملة دراستهم[27].

ولقد كان من الأعمال الهامة التي أدخلها محمد علي على السُّودان تطويره لنظام التعليم الذي كان سائداً هناك ، والذي كان قاصراً على حفظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة لبعض الأطفال في الزوايا وفي الجوامع الصغيرة التي كانت توجد في بعض قرى السودان الشمالي وكانت هذه الزوايا لا تؤدي دورها في خدمة العلم بالكفاءة المطلوبة لأنه لم يكن لها مصدر ثابت للإنفاق عليها . فقد قام محمد علي بتطويرها عن طريق بناء المساجد مثل مسجد الخرطوم، الذي كانت وظيفته تنحصر في تعليم أبناء السُّودان القراءة والكتابة وبعض العلوم الأخرى كالنحو والخط . وقد خصص لهذا الجامع مائة وخمسين قرشاً في الشهر للإنفاق منها على التلاميذ الذين كانوا يدرسون فيه. لكن هذا المبلغ كان لا يفي باحياجات الإمام والدارسين معاً مما اضطره أن يشتكي إلى حكمدار السُّودان الذي طلب بدوره زيادة المبلغ المخصص لهذا الجامع بحوالي مائة قرش ليصبح مجموع مخصصاته مائتين وخمسين قرشاً . كما طلب أيضاً تخصيص ثلاثة أرادب من الذرة لهذا المسجد كي يؤدي دوره في خدمة العلم[28].

وقد بلغ عدد الدارسين في مسجد الخرطوم في عصر محمد علي حوالي واحد وثمانين تلميذاً كانوا جميعاً من أبناء السُّودان وفيما بعد تقرر أن يتقاضى كل تلميذ من هؤلاء التلاميذ مرتباً شهرياً قدره قرشان فقط بالاضافة إلى حصوله ربعين من الذرة وذلك لكي يهتم كل منهم بدروسه . وهذه وسيلة من وسائل التشجيع، وإن دل هذا العمل على شئ فانما يدل على اهتمام محمد علي بنشر التعليم الديني في السودان[29] .

لم يقتصر نشاط محمد علي التعليمي على الخرطوم وحدها دون غيرها بل امتد نشاطه إلى المناطق الأخرى كدنقلة التي وافق محمد علي على إنشاء مسجد آخر بها لتعليم أبنائها القراءة والكتابة وحفظ القرآن

---

[25] أنظر محمد فوزي مصطفى – الثقافة العربية – مرجع سابق ص 37م .

[26] المرجع السابق ص 38م .

[27] أنظر د . السيد يوسف نصر – الوجود المصري في افريقيا في الفترة من 1820 – 1899م . دار المعارف – الطبعة الأولى 1981م ص 122 .

[28] أنظر المرجع السابق ، ص 120 – 121.

[29] أنظر المرجع السابق نفس الصفحة .

بالاضافة إلى ذلك فأنه قد سمح لأبناء سنار بالالتحاق بالجامع الأزهر وذلك لمواصلة دراستهم فكانوا يدرسون التفسير والفقه والشريعة الإسلامية وما إلى ذلك . وكان قد تصادف أنّ هؤلاء التلاميذ بعد وصولهم إلى مصر لم يجدوا رواقاً خاصاً لاقامتهم فيه أسوة بغيرهم من أبناء الصعيد والمغاربة وغيرهم من الأجناس الأخرى . ولما طلبوا لهم رواقاً أفادت إدارة الأزهر بأنه لا توجد أروقة خالية، فجميع الأروقة التي كان يبلغ عددها اثنين وعشرون رواقاً كانت مشغولة وعندما علم محمد علي بذلك أمر بأن يؤجر لهم مكان يستقرون فيه فأجرت لهم إدارة الأزهر رواقاً جديداً عرف باسم رواق السنارية .

إضافة إلى ذلك فإنّ محمد علي أمر بإعادة بناء مسجد الفقيه إبراهيم بن عيسى وجعله معهداً علمياً مع تخصيص راتب شهري له كما أمر ببناء عشر حجرات لسكن الطلاب بمسجد كترانج . كما أمر بإنشاء مدرسة لتعليم الصبيان بجانب مسجد دنقلة، وإلى جانب هذه المؤسسات أمر في كردفان باعفاء أولاد الشيخ إسماعيل الولي من ضريبة السواقي والأطيان مساعدة لهم ليمضوا في التدريس وفي إقامة شعائر الدين[30].

ويتجلى اهتمام محمد علي بأمر التعليم في السُّودان أثناء رحلته إلى السودان سنة 1838م حيث خاطب رؤساء القبائل والمشائخ موضحاً لهم أهمية تعليم أبنائهم وقد جاء في بعض فقرات حديثه :" ... ولكن المشاهدة والتقدير مع العلم بالقراءة والكتابة شئ وبدونهما شئ آخر . فإن كنتم توفدون أبناءكم فأني ألحقهم بالمدارس الكثيرة التي وفقني الله سبحانه وتعالى في إنشائها لتعليم أبناء الأمة وتثقيفهم، وأدفع لهم نفقات مأكلهم وبذلك ينعم أبناؤكم بنصيب وافر من العلم والأدب في هذه المدارس ثم أعيدهم بعد سنوات قليلة إلى أوطانهم معززين مكرمين، وأكون بهذا العمل قد خدمت عائلاتكم خدمة عظيمة من جهة، وخلدت أسمي مقروناً بالفخار إلى يوم القيامة من جهة أخرى"[31].

وقد كانت كلمات الباشا ذات أثر كبير على الزعماء والمشائخ حتى أنّ التقرير الرسمي لهذه الزيارة قد ذكر أنه كان لهذا الخطاب أثر عظيم على نفوسهم ووعدوا بإرسال أبنائهم[32] .

وتشير المصادر إلى أنّ عدداً من أبناء وجهاء السُّودان قد وصلوا إلى القاهرة عقب عودة محمد علي إليها . وقد أمر محمد علي بإلحاقهم بالمدرسة التجهيزية ليتعلموا القراءة والكتابة أولاً ثم يدرسوا بعد ذلك علم الزراعة .

هذا وقد وجه الباشا بلزوم العناية بهم وتميزهم على غيرهم من تلاميذ المدرسة الآخرين وأن يخصص لهم خادم يقوم بما يلزم لهم وألا يفرق بينهم بل يكونوا معاً[33] .

---

[30] أنظر د. عز الدين الأمين – تراث الشعر السُّوداني – مرجع سابق ص 41 .

[31] د . حسن أحمد إبراهيم – رحلة محمد علي باشا إلى السودان 1838-1839 كراسة رقم 15 – معهد الدراسات الافريقية والآسيوية – جامعة الخرطوم 1980 ، ص 51 .

[32] أنظر د . محمد فؤاد شكري – مرجع سابق ، ص 27 .

[33] أنظر عبد العزيز أمين عبد المجيد – تاريخ التربية في السُّودان – المطبعة الأميرية بالقاهرة 1949م، ص 16 .

وتذكر بعض المراجع أنّ هؤلاء الطلاب قد ألحقوا بمدرسة الألسن قبل عودتهم إلى السُّودان لتسلم وظائفهم الحكومية . وقد قضوا في مصر ثلاث سنوات كانت تصرف لهم فيها الإعانات اللازمة . وعندما شرع محمد علي باشا في إرسال البعثات المصرية إلى أوروبا كجزء من سياسته التعليمية وقع الاختيار ايضاً على نفر من أبناء السودان الذين كانوا يدرسون بمصر ولكنهم عادوا من أوروبا ولم يحضروا إلى السُّودان وفضلوا الالتحاق بوظائف في مصر [34] .كما أشارت بعض المصادر إلى خطاب من أحد علماء السُّودان أرسله إلى محمد علي باشا أثناء زيارته للسودان يشكره فيه على الخدمات التي يقدمها لطلاب العلم .

ولم يكتف محمد علي بارسال العلماء إلى السُّودان وتشجيع الطلاب بالهجرة إلى مصر ولكنه أيضاً حاول تشجيع الطرق الصوفية التي كانت منتشرة في ذلك الوقت إلى النزوح إلى السُّودان . وبالفعل جاءت بعض هذه الطرق إلى السودان[35].

يلاحظ أنّ محمد علي على الرغم من تشجيعه للتعليم في السُّودان – لم يضع سياسة تعليمية واضحة كتلك التي وضعها في مصر[36].ويعلّل أحد الكتاب هذا الأمر بأن محمد علي لم يرد أنّ يملي إرادته على القوم وهم حديثو الصلة به حتى لا يغير قلوبهم [37] . وعلّق أحد الباحثين على سياسة الأتراك التعليمية بصفة عامة بقوله : "وحصر الأتراك مسئولية الدولة في جباية الضرائب وحماية الولايات من الغزو واقرار الأمن الداخلي وفض الخصومات بين الناس، أما المسائل العامة كالثقافة والتعليم فلم تكن تدخل بالضبط في مسئولية الدولة بل تركت للأفراد والجماعات"[38].

وهذا القول على اطلاقه ليس صحيحاً لأنّ الأتراك بصفة عامة ومحمد علي بصفة خاصة قد اهتموا بالتعليم وفتح المدارس والانفاق عليها ولكن اهتمامهم بالتعليم والحق يقال ليس في مستوى اهتمامهم بالنواحي الإدارية والعسكرية والعمرانية .

أما لماذا لم يضع محمد علي سياسة تعليمية واضحة في السُّودان فالسبب في ظني يرجع إلى أنّ محمد علي كان يفكر في إنشاء دولة مترامية الأطراف ولذلك فإنّ تركيزه في المقام الأول كان على الجوانب الإدارية والعسكرية حتى إذا ما استقرت هذه الأمور فكر في الجوانب الأخرى .

---

[34] انظر محمد عمر بشير – تطور التعليم في السُّودان 1898- 1956م ترجمة هنري رياض وآخرين – دار الثقافة بيروت 1970، ص 40 .

[35] انظر عبد المجيد عابدين – تاريخ الثقافة العربية في السُّودان – مرجع سابق ص98.

[36] انظر د. إبراهيم الحاردلو – الرباط الثقافي بين مصر والسُّودان – دار جامعة الخرطوم للترجمة والنشرى والتأليف 1977م، ص 8 .

[37] عبد العزيز أمين عبد المجيد – تاريخ التربية في السُّودان – مرجع سابق، ص 13.

[38] د . يوسف خليل يوسف – القومية العربية ودور التتريك في تحقيقها – الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة 1966م، ص 101.

وعلّق الدكتور عبد العزيز أمين على سياسة محمد علي التعليمية بقوله: كان لمحمد علي سياسة معروفة تتعلق بالتعليم منذ كان يغلب المنفعة على النظريات وقد أبقى في مصر التعليم القومي، وهو التعليم الديني المنتشر في القرى والحواضر على أوضاعه المألوفة. أي أنه واجه مشكلة الثقافة عموماً ومسائل التربية والتعليم خصوصاً بروح الاعتدال فتجنب الاملاء على الناس كما تجنب الفصل بين نظم ونظم فلم يخلق ثنائية في معاهد التعليم بل تمت تلك الثنائية في أيام الجيلين الحاضر والسابق من المصريين.

ولم تعرف أيام محمد علي إلا ثقافة إسلامية في كل مكان"[39] . ويمكن أن يضاف إلى تشجيع محمد علي للتعليم اهتمامه بالرحلات الكشفية ومجهوداته في كشف منابع النيل .

مما تقدم نلاحظ أنّ محمد علي قد شجع التعليم الإسلامي الذي كان موجوداً في السُّودان بطرق شتى شملت بناء المساجد والخلاوي ودعمها وإرسال العلماء إلى السُّودان وتشجيع الطلاب على السفر إلى القاهرة، إلا أنّ الأمر الذي يؤخذ عليه هو أنه لم ينتهج سياسة واضحة في هذا المجال كتلك التي انتهجها في مصر ولم يقم بفتح مدرسة واحدة في السُّودان في الوقت الذي أنشأ فيه عشرات المدارس هناك.

جهود عباس الأول التعليمية :

قام عباس بن طوسون بن محمد علي بتولي الحكم عقب وفاة عمه إبراهيم باشا وقام باغلاق بعض المدارس التي كان جده محمد علي قد افتتحها في مصر الأمر الذي جعل بعض الكتاب يتهمونه بالرجعية ومحاربة العلم والعلماء . ولكن الأمر الذي فأجأ به عباس الناس هو قيامه بافتتاح مدرسة نظامية في الخرطوم تعتبر الأولى من نوعها مما جعل قطاعاً كبيراً من المؤرخين يشككون في نوايا عباس ويعتقدون أنه ما افتتح هذه المدرسة إلا لتكون منفى لرجال العلم والأدب وقادة النهضة في مصر[40].

وقد أرسل عباس خطاباً إلى حكمدار السودان يذكر فيه أنه لا بد من افتتاح مدرسة في الأقاليم السُّودانية يدرس فيها أولاد المشايخ وغيرهم من أبناء السُّودان إضافة إلى أبناء الأتراك الموجودين في السودان وقد تقرر أن تكون في الخرطوم وأن يكون نظامها موافقاً لأصول المدارس المصرية وأن يقبل فيها نحو مائتين وخمسين من أولاد المشايخ والأهالي بمديريات دنقلة والخرطوم وسنار والتاكة وملحقاتها، إضافة إلى أبناء الأتراك . وتم اختيار رفاعة الطهطاوي ناظراً لها وطلب منه تحديد احتياجاته حتى يتم افتتاح المدرسة.

---

[39] د . عبد العزيز أمين عبد المجيد – تاريخ التربية في السُّودان – مرجع سابق ، ص13.

[40] أنظر رفاعة رافع الطهطاوي – الأعمال الكاملة تحقيق د . محمد عمارة – المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1973م ،ج 1 ، ص 57 وما بعدها.

وتنفيذاً لتوجيهات الخديوي فقد اختار رفاعة أحد عشر مدرساً وطبيباً للعمل في مدرسة الخرطوم وكان أكثر المدرسين من تلاميذه الذين درسوا عليه[41].

وقد صحبت الفترة التي قضاها الطهطاوي في الخرطوم ظروف قاسية إذ مات أربعة من المدرسين الذين صحبوه للعمل في المدرسة فأصبح هذا حدثاً فاجعاً للعاملين من المدرسين ومصدر فزع لكل من يعين مستقبلاً في السودان . وكانوا يرجعون أسباب الموت إلى رداءة الطقس في السُّودان والأمراض الناجمة عنه[42] .

يضاف إلى كل ذلك تشكيك المؤرخين كما ذكرنا في نوايا عباس، فهو في نظرهم مثال للرجعية ومعاداة العلم والعلماء ، وقد أغلق من المدارس ما كان قائماً فكيف يمكن تفسير افتتاحه لهذه المدرسة ما لم يكن قصده منها أن تكون منفى للعلماء . ويؤكدون ذلك بأنّ مرتب رفاعة الطهطاوي ظل محجوزاً منذ أن غادر القاهرة حتى عاد إليها بعد وفاة عباس باشا . وكان حجز الصرف بدعوى أنّ رفاعة قد تصرف في بعض الكتب الأفرنجية التي كانت بمدرسة الألسن وتم حجز مرتبه حتى يتم الفراغ من جرد الكتب . وقد دافع البعض عن نوايا عباس في افتتاح هذه المدرسة بقوله :" لو أراد عباس نفي رفاعة الطهطاوي أو غيره لأمكنه ذلك دون اللجؤ إلى المبررات والمعاذير"[43] .

وأنا أرى أنّ الأمرين يمكن أن يكونا قد حدثا لأنّ المجلس الخصوصي هو الذي وافق على افتتاح هذه المدرسة كما جاء في خطاب عباس باشا إلى حكمدار السُّودان . وربما يكون المجلس الخصوصي قد استشعر حاجة البلاد إلى مثل هذه المدرسة، فلما رأى عباس أنّ المدرسة تقرر فتحها أرسل إليها رفاعة الطهطاوي ومن معه من الأساتذة غير المرغوب فيهم.

على كل افتتحت المدرسة بقليل من الطلاب، واحداً وثلاثين طالباً ولم يزيدوا على هذا العدد بعد استمرار الدراسة فيها إن لم ينقصوا. وهذا عدد قليل جداً بالنسبة للعدد الذي حدده المجلس الخصوصي (250 تلميذ) ولم تستمر الدراسة أكثر من سنة دراسية واحدة بدأت في شوال سنة 1269هـ إلى شعبان سنة 1270هـ وكانت نحواً من تسعة أشهر. و لا أحد يستطيع الحديث عن الفائدة التي خرج بها هؤلاء التلاميذ . وفي هذا العام وبعد وفاة عباس باشا صدر أمر في 27 شعبان سنة 1270هـ إلى حكمدار السُّودان بإلغاء مدرسة الخرطوم . وذكر أنّ حكمدار السُّودان لم يستقبل رفاعة وأصحابه استقبالاً طيباً بل وزع معدات المدرسة على الجيش وأهمل شأن رفاعة وصحبه وقد قيل أنهم بقوا في الخرطوم دون عمل وبلغ الهوان برفاعة مبلغه عندما انتدب لإحصاء النخيل[44].

---

[41] أنظر د . عبد العزيز أمين عبد المجيد – تاريخ التربية في السُّودان – مرجع سابق ،ص28 – 29 .

[42] أنظر د. إبراهيم الحاردلو – الرباط الثقافي – مرجع سابق، ص 13.

[43] أنظر د . عبد العزيز أمين عبد المجيد – تاريخ التربية في السودان – مرجع سابق،ص 25.

[44] أنظر د. محمد إبراهيم أبو سليم – تاريخ الخرطوم – دار الجيل بيروت – الطبعة الثانية 1979م ،ص 43.

وقد ذكر الدكتور أبو سليم أنّ طلاب هذه المدرسة كانوا من أبناء الموظفين وأثرياء المدينة، أما أبناء العامة فكانوا يذهبون إلى الخلاوي[45] .

وقد ذكر الطهطاوي أن مشايخ الخرطوم الذين كانوا يحفظون القرآن قد تعلموا منه تجويد القرآن وعلم القراءات حتى صاروا ماهرين في ذلك، كما قام رفاعة بترجمة كتاب في الأدب أثناء مكوثه في الخرطوم[46] .

وبالطبع " لم تسعد الخرطوم الشيخ فصار يرسل التوسل تلو التوسل لرؤسائه يستعطفهم العفو عنه واعادته إلى مصر وقد سجل لنا في كتبه شيئاً عن السودان بما في ذلك قصيدة هجا فيها الخرطوم وحياتها القاسية التي إذا قورنت بما رأى من حال المدنية والحضارة في فرنسا تعد أكثر من بدائية، وهذا ما تكشفه لنا قصيدته الطويلة والتي اختتمها بقوله :

ثلاث سـنين بالخرطوم مرت - بدون مدارس طبق المـراد

وكيف مدارس الخرطوم ترجى - هناك ودونها خرط القتاد

نعم ترجى المصانع وهي أجدى - لتأييد المقاصـد والمبادئ

علـوم الشرع قائمة لديهـم- لمرغوب المعاش أو المعـاد [47] .

ولم يقم رفاعة الطهطاوي في السُّودان بعد وفاة عباس باشا سوى أيام معدودات غادر فيها الخرطوم إلى القاهرة ولم يعد للسُّودان أبداً .

هذا ما كان عليه التعليم على الصعيد الرسمي أما على الصعيد الشعبي فقد استمرت المساجد والخلاوي والعلماء في أداء مهامهم التعليمية واستمر الطلاب في هجرتهم إلى مصر لطلب العلم في الأزهر.

ويلاحظ أنه قد ظهرت لأول مرة في هذا العهد اجازات علمية لبعض الطلاب الذين كانوا يدرسون بمصر . ومن أقدم هذه الإجازات المؤرخة إجازة الشيخ علي العربي من علماء الأزهر لأحمد ابن محمد بن عيسى السناري وولده الشيخ محمد وهي بتاريخ سنة 1267هـ مع أنّ هناك بعض الاجازات غير المؤرخة لهذين الشيخين من بعض شيوخ الأزهر مثل الشيخ أحمد بن علي بن حمد المالكي والشيخ أحمد الاسماعيلي والشيخ محمد خير الله العدوي المالكي وغيرهم .

هذه الاجازات العلمية تعكس المستوى العلمي الجيد الذي وصله الشيخ أحمد وولده الشيخ محمد الذي أوصله علمه لأن يصبح أستاذاً بالأزهر . ولاشك أن الشيخ أحمد وأبنه ماهما إلا نموذجين لكثير من الطلاب السودانيين الذين هاجروا إلى الأزهر لتلقي العلم في تلك الفترة[48] .

---

[45] أنظر المرجع السابق نفس الصفحة .

[46] أنظر الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي – مرجع سابق ،ج 1،ص 462.

[47] أنظر المرجع السابق ،ج1، ص 453.

التعليم في السُّودان في عصر محمد سعيد :

كان محمد سعيد مثل عباس باشا في عدم اهتمامه بالتعليم في مصر والسُّودان على الرغم من علمه وثقافته وتأثره بحضارة أوروبا بل قام سعيد بقفل المدرسة الوحيدة التي أنشأها عباس في الخرطوم والتي اعتبرت بداية للتعليم النظامي في البلاد . ولكن استمر الحكمداريون في منح العطايا والمكافآت للعلماء والأدباء والطلاب الأمر الذي شجع الحركة العلمية ولكنها على كل حال تبقى حركة شعبية غير مرشدة ولا موجهة .

شهد عصر عباس وسعيد نوعاً جديداً من أنواع التعليم وهو التعليم الكنسي الذي كان له بالغ الأثر على مستقبل البلاد .ويذكر أنّ محمد علي باشا كان قد أصدر أوامره إلى الولاة في الخرطوم بتقديم كل عون للارساليات واعفائها من الضرائب . كما وافق السُّلطان العثماني استجابة لرغبة الامبراطور فرانز جوزيف امبراطور النمسا على منح الارساليات التبشيرية في السُّودان نفس الامتيازات والاعفاءات التي منحت للمبشرين النصارى في سائر أرجاء الدولة العثمانية[49]. وهذه الامتيازات كانت قد منحت للدول الأوربية في الدولة العثمانية في طورها الأخير أيام ضعفها وتفككها .

وقد بدأ نشاط الارسالية الكاثوليكية في الخرطوم 1848م عندما وصل الأب لويجي منتوري وفتح مدرسة صغيرة لأبناء الجالية النصرانية بالخرطوم ثم أنشأ لهم كنيسة ومقبرة .

وتواصل هذا الجهد بوصول دفعات من المبشرين البيض الذين تعرضوا لنكبات المرض والموت في وسط افريقيا حيث أمر البابا باغلاق ارسالياتهم في وسط افريقيا وقرر بقاءهم في الخرطوم [50] .

وقد كان القبول لمدرسة الأب لويجي منتوري قاصراً على أبناء الكاثوليك المقيمين في الخرطوم وأبناء الرقيق الذين حررتهم الحكومة . وكان التلاميذ يدرسون فيها القراءة والكتابة والانجيل[51] .

وقد كتب الأب منتوري إلى ممثل البابا بأنه اعتزم فتح مدرستين أحدهما في منطقة الشلك بالجنوب والثانية في شرق السودان على حدود اثيوبيا . وكان من رأيه أن يعلم ويدرب نفر من هذه القبائل للمساهمة في نشر النصرانية في أفريقيا الوسطى . إلا أن الأب منتوري غادر السُّودان قبل تنفيذ مشروعه

---

[48] أنظر د. عبد العزيز الأمين – قرية كترانج واثرها العلمي في السودان – دار جامعة الخرطوم للترجمة والتأليف والنشر، الطبعة الأولى 1975م ، ص 80 وما بعدها.

[49] أنظر د. محمد عمر بشير – تطور التعليم في السُّودان – مرجع سابق ، ص 49.

[50] أنظر د. حسن مكي محمد أحمد – جزور وابعاد التبشير المسيحي في العاصمة المثلثة – المركز الإسلامي الافريقي بالخرطوم – شعبة البحث والنشر – كراسة رقم 1 ، ص4 .

[51] أنظر د. محمد عمر بشير – تطور التعليم في السودان – مرجع سابق، ص 50.

وخلفه في الإشراف على الكنيسة والمدرسة القس سيراسنت الذي ترك رعاية الارسالية والمدرسة 1855م[52].

وتنفيذاً لمقترحات منتوري وافق البابا على إنشاء مركز للفاتيكان في افريقيا واصبحت الخرطوم بمقتضى هذه الموافقة مركزاً لنشاط الارساليات الكاثوليكية في السودان. ونتيجة لهذه الجهود افتتحت مدرسة بالخرطوم التحق فيها أبناء الأقباط وأبناء الأوربيين الموجودين بالخرطوم اضافة إلى أبناء غير المسلمين من السودانين، وكان يدرس فيها اللغات العربية والفرنسية والايطالية والحساب والموسيقى والأعمال اليدوية . وقيل أن تلاميذ هذه المدرسة بلغ عددهم في وقت من الأوقات أربعين تلميذاً جلهم من السودانيين . وكانت المدرسة تحظى بتأييد سلطات الحكومة ولم بعترض عليها الأهالي لأنه لم يكن يعنيهم من أمرها شيئاً إذ لم تفتح أبوابها لقبول أبناء المسلمين بل اقتصرت على أبناء النصارى .

هذا وقد أرسل اثنان من تلاميذ هذه المدرسة إلى مالطة لمواصلة تعليمهم بينما انخرط التلاميذ الآخرون الذين أكملوا تعليمهم في المدرسة في سلك العمل الحكومي . وقد اتسع النشاط التبشيري في السُّودان حتى شمل الجنوب حيث أسس مركزان في غندكرو في 1850م وفي كاكا 1862م إلا أنّ هذين المركزين لم يذكر لها نشاط[53] .

الحياة العلمية في السُّودان في عهد الخديوي إسماعيل :

لعل أكبر نهضة تعليمية وثقافية شهدها السُّودان في العهد التركي كانت في فترة الخديوي إسماعيل ويرجع ذلك في اعتقادي لسببين :

1- السبب الأول هو اتصال اسماعيل بأوربا ووقوفه على النهضة هناك وبالتالي محاولة جلب هذه النهضة لبلاده وهذا الأمر لا يتم إلا بنشر التعليم .

2- السبب الثاني هو حرص إسماعيل الشخصي واهتمامه بالسُّودان وترقية سكانه ويظهر هذا الحرص في معظم المراسلات التي كانت تتم بين اسماعيل وولاته في السُّودان .

ويمكن أن نشاهد آثار هذه النهضة التعليمية على المستويين الرسمي والشعبي .

أولاً : المستوى الرسمي

في العام 1864م طلب موسى حمدي حكمدار السُّودان من الخديو إسماعيل أن يوافق على تعليم أبناء العمد والمشايخ القراءة والكتابة وذلك للاستعانة بهم بعد اتمام دراستهم في دواوين الحكومة وكان

---

[52] أنظر المرجع السابق نفس الصفحة .

[53] أنظر المرجع السابق، ص51 .

إسماعيل قد وافق على فتح مدرسة الخرطوم لتعليم أبناء السُّودان واشترط أن تضم المدرسة خمسمائة تلميذ[54] .

كما طلب هذا الحكمدار من الخديو ترتيب راتب شهري مع كمية من الذرة لبعض الزوايا التي يتلقى فيها الطلاب العلم وقد رد الخديو على طلبه بخطاب في 27 مارس 1864م وافق فيه على مرتب شهري وذرة للزاوية التي بناها الشيخ مصطفى إبراهيم ببربر والتي كان يدرس فيها القرآن والعلوم الدينية .

كما وافق الخديو على منح راتب شهري قدره 250 قرشاً وأربعة أرادب ذرة بصفة شهرية لكل المساجد الكبيرة خدمة للعلم وختم الخديو خطابه للحكمدار بقول :".. وحيث إنّ إنشاء مثل هذه الزوايا والأعمال الخيرية مما يستوجب سرورنا نأمر بتوسيع زاوية الشيخ مصطفى إبراهيم وتجديد بنائها لتكون مثال الزوايا الأخرى بالسُّودان على نفقة الحكومة"[55].

وهذا الخطاب يعتبر عندي من أكبر الأدلة على حرص إسماعيل على نشر التعليم في السُّودان . إذ أن الحكمدار وصاحب الزاوية المذكورة طلبا فقط 75 قرش وأردب واحد من الذرة ولكن الخديو جعل المبلغ 250 قرش والذرة أربعة أرادب حرصاً وتشجيعاً على نشر العلم .

وزاد الخديو من اهتمامه بالتعليم فأمر بفتح خمسة مدارس ابتدائية دفعة واحدة بدلاً من مدرسة واحدة تكون في الخرطوم وذلك بغرض نشر التعليم في أكبر مساحة ممكنة من البلاد السُّودانية .

وقد رؤى أن تكون هذه المدارس في مدن الخرطوم، بربر، دنقلة، كردفان والتاكة . وقد جاء في خطاب اسماعيل للحكمدار مايلي : " وحيث إنّ تأسيس خمس مدارس في المديريات المذكورة لنشر وتعميم العلوم والمعارف والحضارة على الوجه المشروع موافق لنفس المصلحة، بناءاً عليه بادروا إلى إجراء إجابة واسعة في تعليم سكان الجهات المذكورة وتقدمهم بأحسن وجه"[56] .

هذا وقد زودت هذه المذاهب المدارس بما يلزمها من الكتب والأدوات المكتبية وغيرها . وقد خصت مدرسة الخرطوم بخمسين كتاباً من كل صنف من أصناف الكتب المقررة وزودت المدارس الأخرى بخمس وعشرين كتاباً من كل صنف كما زودت هذه المدارس بالمدرسين اللازمين للتدريس وكان كل واحد منهم يتقاضى مبلغ شهري قدره ألف قرش، أما العمال فقد كان العامل يتقاضى مبلغ خمسة وثلاثون قرشاً[57]. وقد كانت هذه المدارس تحت الإشراف الفني لديوان المدارس بمصر . وتتبع خطط

---

[54] أنظر د . السيد يوسف نصر – الوجود المصري في أفريقيا – مرجع سابق ،ص 276.

[55] أنظر د. محمد فؤاد شكري الحكم المصري في السُّودان ، ص305..

[56] مكي شبيكة – السُّودان عبر القرون – دار الثقافة بيروت ، ص143.

[57] أنظر د. السيد يوسف نصر – الوجود المصري في افريقيا – مرجع سابق ،ص276.

الدراسة المتبعة في المدارس المصرية وقد اختير بعض خريجي هذه المدارس لإتمام تعليمهم بمدارس التلغراف والهندسة والطب والصيدلة والمدارس الفنية بمصر [58] . وقد بلغ عدد الطلاب الذين كانوا يتلقون تعليمهم في مدرسة الخرطوم 124 طالباً و75 طالباً في المدارس الأخرى[59] .

والمناهج التي تدرس في هذه المدارس هي اللغة التركية وفي بعضها اللغة الفرنسية والرياضيات والجغرافيا والتاريخ كما كان يدرس فيها علماء من الأزهر علوم اللغة العربية والدين كشرح الكفراوي وشرح الشيخ خالد أو شرح الأزهرية وشرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك . بالإضافة إلى تعليم الخط، الذي عني به عناية خاصة، حتى أنّ الطالب لا ينجح إذا رسب فيه ومن ذلك يمكننا أن ندرك المستوى الرفيع الذي بلغته تلك المدارس[60] .

وكان من يتخرج في هذه المدارس من الطلبة يستوعب في الوظائف في دواوين الحكومة للمساعدة في الإدارة والكتابة ومن أراد منهم أن يواصل تعليمه يلتحق بالمدرسة التجهيزية في مصر [61] .

وكان نظام الدراسة في هذه المدارس ينقسم إلى قسمين : قسم خارجي وقسم داخلي . وبعد التخرج كان طلاب القسم الداخلي يعينون في وظائف كتابية في السلكين العسكري والإداري بينما كان تلاميذ القسم الخارجي يخيرون بين التوظيف والأعمال الأخرى. وكان تلاميذ هذه المدارس من أبناء المصريين المقيمين بالسودان ومن أبناء الجنود والمشايخ والعمد [62] .

هذا وقد كان حكمدار السُّودان جعفر باشا مظهر محباً للعلم والأدب فاجتمع حوله كثير من العلماء والأدباء الذين كسبوا عطفه ونالهم حظ من رعايته واهتمامه ، فخلق هذا الاهتمام وسطاً أدبياً علمياً في أيامه وزاد من الصلة الثقافية بين مصر والسُّودان وأخذ أدباء السُّودان وشعراؤه يرسلون أعمالهم الأدبية لنشرها في الوقائع المصرية بالقاهرة[63] .

وقد كتب هذا الحكمدار إلى مصر يطلب الموافقة على إرسال بعثات من الطلاب السُّودانيين الذين يحفظون القرآن وممن حصلوا على بعض مبادئ الفقه للدراسة في الأزهر الشريف لمدة ثلاث سنوات يعودون بعدها لأهلهم رسل ثقافة دينية سليمة ودعاة دين قويم[64].

وقد وافق الخديو على طلب الحكمدار وتمت المخاطبات بالموافقة على ذلك وباعتماد الترتيبات المالية المتعلقة بها .

---

[58] أنظر د. شوقي الجمل – تاريخ سُّودان وادي النيل – حضارته وعلاقته بمصر منذ أقدم العصور إلى الوقت الحاضر – مكتبة الانجلو المصرية 1969م ج2 ،ص143.

[59] أنظر د . محمد عمر بشير – تاريخ التعليم في السُّودان – مرجع سابق ،ص42.

[60] أنظر محمد سليمان – دور الأزهر في السُّودان – مرجع سابق ،ص57.

[61] أنظر إبراهيم الحاردلو – الرباط الثقافي – مرجع سابق، ص15.

[62] أظر السيد يوسف نصر – الوجود المصري – مرجع سابق، ص278.

[63] أنظر إبراهيم الحاردلو – الرباط الثقافي – مرجع سابق، ص15.

[64] أنظر محمد سليمان – دور الأزهر – مرجع سابق ،ص65.

هذا وقد كانت مدارس السُّودان تكلف الحكومة المصرية الكثير من الأموال فقد بلغت تكاليف مدرسة الخرطوم الشهرية 8346,74 قرشاً وتكاليف مدرسة كردفان بما في ذلك مرتبات المدرسين ومعيشة التلاميذ 2913,72 قرشاً وتكاليف مدرسة بربر 2871 قرشاً وتكاليف مدرسة دنقلة 1287,1 قرشاً كما بلغت تكاليف مدرسة التاكا 2911 قرشاً وبلغت التكلفة الإجمالية الشهرية لهذه المدارس 29913 قرشاً تقريباً [65] .

كذلك أحدثت الإدارة المصرية في السُّودان شبكة لخطوط التلغراف بين الخرطوم والأبيض وفازوغلي والكوة وبربر وكسلا وسواكن وغيرها من مدن السُّودان . وكان لا بد لهذه الشبكة من فنيين يقومون بأمرها وكذلك انشئت مدرستان في كل من الخرطوم وكسلا لتعليم التلاميذ من خريجي المدارس الابتدائية فن التلغراف وكان يشرف على هؤلاء التلاميذ أحد المهندسين ووكيل تلغراف كل جهة وبعد أن ينهي هؤلاء التلاميذ تدريباتهم في تعلم فن التلغراف ينقسمون إلى ثلاث فئات حسب مستواهم العلمي . وإلى جانب تعلمهم فن التلغراف تعلم البعض منهم فن الهندسة والحساب فكانوا يلحقون أيضاً بترسانة الخرطوم البحرية وكانوا يمكثون بها عدة شهور وبعدها يوزعون للعمل على السفن التي تعمل في النيل والبحر الأحمر [66] .

هذا وقد أنشا محافظ سواكن والبحر الأحمر مدرسة إبتدائية في سواكن للمحررين من العبيد بسبب عدم انصهارهم في المجتمع وعدم تقبل المجتمع في ذلك الوقت لاندماجهم فيه[67].

إضافة إلى هذه المدارس فقد طلب حكمدار السُّودان من أحد الأطباء الذين يعملون بمستشفى الخرطوم أن يقوم بتعليم عدداً من التلاميذ من خريجي المدارس الابتدائية مهنة الطب وقد أبدى هذا الطبيب استعداده للقيام بهذه المهمة ولكن لما عرض هذا الأمر على الخديو اسماعيل رفض ذلك بحجة أن مهنة الطب تحتاج إلى وقت طويل في التعليم ووعد بأنه سوف يرسل أطباء من مصر للعمل بالسُّودان[68]

.

ويذكر الدكتور شوقي الجمل أنه قد أنشئت بعض المدارس لتدريب السُّودانيين على الصناعات الصغيرة المختلفة وبعض هذه المدارس كانت تعلم الصبية في الصباح بينما يؤمها الكبار في الليل لدراسة القرآن الكريم . كما أضاف أنّ حكمدار السُّودان عندما شعر بالحاجة إلى ميكانيكيين لإدارة الماكينات الخاصة بمحالج القطن أرسل عدداً من الشباب السُّودانيين إلى مصر لتعلم الصناعات الميكانيكية [69].

---

[65] أنظر السيد يوسف نصر – الوجود المصري – مرجع سابق ،ص279.

[66] أنظر نفس المرجع السابق والصفحة.

[67] أنظر د. محمد عمر بشير – تطور التعليم في السُّودان – مرجع سابق ،ص45.

[68] أنظر السيد يوسف نصر – الوجود المصري – مرجع سابق ، ص279.

[69] أنظر د. شوقي الجمل – تاريخ سودان وادي النيل – مرجع سابق، ص143.

هذا وقد وضع مشروع لفتح مدرسة صناعية في جنوب السُّودان ليستفيد منها الأهالي في تعليم أبنائهم تعليماً مهنياً فضلاً عن تعليمهم اللغة العربية والدين الإسلامي.

كما وضع مشروع متكامل لفتح مركز لتطوير المجتمع في أدفو بالقرب من القاهرة ليلتحق به حوالي مائة وعشرين طالباً سودانياً على أن تتراوح أعمارهم من اثنتي عشر سنة إلى خمسة عشر سنة على أنّ يقبل مائتي طالب كل عام . وأن يسكن الطلاب في مشروع زراعي وأن يتلقوا تعليماً أولياً وتدريباً عملياً في الزراعة . وكان المشروع يتضمن دراسة مبسطة للاقتصاد والتدبير المنزلي وتربية الأطفال . وكان يهدف أساساً لمد السُّودان بمزارعين متعلمين ذوي خبرة، إلا أن هذه المشروعات لم تر النور [70] .

كذلك تشير بعض المراجع إلى أنّ بعض التلاميذ الذين ذهبوا إلى مصر قد التحقوا بمدرسة المبتديان وذلك ليتعلموا العلوم الزراعية وبعض العلوم الأخرى وكان بعض الذين التحقوا بمدرسة المبتديان من كبار السن والبعض الآخر من صغار السن ويبدو أن كبار السن كان لا يتقدمون في دراستهم، ولما علم الخديو إسماعيل بعدم تقدمهم في الدراسة قرر أن ينهي دراستهم وأن يلحق اقوياء البنية منهم بالجيش، أما ضعاف البنية فيلحقون بالحرف والصناعات الأخرى[71] .

أشرت سابقاً إلى انّ الحكومة المصرية سمحت للبعثات التبشيرية بممارسة نشاطها في السُّودان كما أنّ الحكومات الأوربية حصلت على اذن بذلك من السُّلطان العثماني باعتبار أنّ السُّودان جزء من الأراضي العثمانية وبالتالي يحق للأوربيين التمتع بالحقوق والامتيازات التي اعطتها لهم الدولة العثمانية في أيام ضعفها، وقد أشرنا للدور التعليمي لهذه البعثات .

ولقد ساعد الحكام الأجانب الذين عملوا في السُّودان هذه البعثات في مهامها خاصة غردون باشا الذي كتب في 1871م لمجلس الكنيسة الاسقفية في انجلترا داعياً اياها للقيام بنشاط تبشيري في المناطق الاستوائية [72] .

وكان من أكبر المبشرين في تلك الفترة في السُّودان الأب دانيال كمبوني الذي عمل في السُّودان منذ العام 1857م وكان يرى أن اعتناق الافارقة للمسيحية لا يتم إلا بقسس من بني جلدتهم يتعلمون تعليماً خاصاً . وقد نشر هذا الرأي في كتيب صغير 1864م وفي عام 1867م أسس معهدين للتبشير المسيحي في ايطاليا وكان أولهما معهد ملاذ السود يقوم بتعليم وتدريب القسس للتبشير في افريقيا وثانيهما هو معهد الأمهات الصالحات لتدريب الراهبات لنفس الغرض كما أسس دانيال كمبوني معهدين آخرين لنفس الغرض في القاهرة[73] .

[70] أنظر محمد عمر بشير – تطور التعليم في السودان – مرجع سابق، ص45-46.

[71] أنظر السيد يوسف نصر – الوجود المصري في افريقيا – مرجع سابق، ص280.

[72] أنظر محمد عمر بشير – تطور التعليم في السُّودان – مرجع سابق، ص53.

[73] نفس المرجع، ص54.

وقد أرسل الأب كمبوني ثلاثة سودانيين من الجنوب إلى ايطاليا كما أرسل ثمانية عشر امرأة إلى معاهد القاهرة لتلقي التدريب هناك . كما أنشأ الأب كمبوني مركزاً تبشيرياً بالجنوب وفتح مدرسة مهنية بالأبيض وقد بلغ عدد طلابها في 1876م أكثر من مائة وخمسين طالباً درسوا مختلف المهن وفي 1881م أعدت مزرعة كبيرة في جنوب الأبيض كانت تعيش فيها حوالي ثلاثمائة أسرة وكان افرادها يدربون على الأعمال الزراعية .

كذلك أسست مدرستان تبشيريتان في بربر وسواكن . كما بلغ عدد طلاب مدرسة الخرطوم الكاثوليكية في سنة 1877م مئتان من البنات ومن الطلاب ثلاثمائة معظمهم من السُّودانيين .

ونتيجة للنجاح الملحوظ الذي حققه دانيال كمبوني فقد طلب منه غردون أن يعيد إنشاء وتنظيم التعليم التبشيري في جنوب السُّودان[74] .

إلا أنه يجب أن نذكر في هذا المقام أنّ قدراً من اللغة العربية والتعليم الإسلامي قد انتشرت في الجنوب في هذه الفترة بسبب امتداد الإدارة المصرية إلى هناك .

وبسبب نشاط التجار الشماليين كالزبير باشا وغيره وفي هذا الصدد يقول حسن مكي : " وما يهم أنّ جهود الزبير أدت إلى استتباب الأمن وازدهار التجارة مما أدى بدوره إلى تقوية انتشار الإسلام واللغة العربية . كما لعب المجندون الجنوبيون في جيش الزبير باشا دوراً بارزاً في نشر اللغة العربية، لأنّ ولاء هؤلاء ظل يتنقل عبر الحكام والمغامرين بعد إبعاد الزبير فعملوا مع غردون وأمين باشا وجسي، وعدد هؤلاء ليس بقليل إذ في الجيش الإسلامي الذي كونه الزبير بلغ عدد الجنوبيين أثنا عشر ألف عسكري"[75]

.

إلا أنه يعلق على دخول الإسلام واللغة العربية إلى الجنوب بقوله :" وهكذا نرى أنّ دخول الإسلام والعربية في جنوب السُّودان حدث ابان انحطاط الدولة الإسلامية وضعف كيانها إذ انفتح الجنوب على العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر فيما كانت الخلافة العثمانية تتهاوى أمام ضربات الأوربيين كما أنّ الاسلام الرسمي الذي دخل السُّودان انما كان اسلام العلمانيين الذي يقوم على فصل الدين عن الدولة، ويعد محمد علي أول ابطاله في العصر الحديث، كما أنّ ممثلي الدولة التركية في جنوب السُّودان جلهم من المسيحيين لذا فإنّ الاسلام الذي دخل إلى الجنوب انما جاء نتيجة للجهد الشعبي والاتصال الحضاري العفوي[76] .

---

[74] أنظر نفس المرجع والصفحة .

[75] د. حسن مكي محمد أحمد – السياسة التعليمية والثقافة العربية في جنوب السُّودان – المركز الإسلامي الأفريقي بالخرطوم شعبة البحوث والنشر 1983م ، ص15.

[76] المرجع السابق ، ص16.

وظيفة الافتاء ودورها في نشر العلم الشرعي:-

معلوم أنّ جيش محمد علي عندما جاء إلى السودان جاء بصحبته ثلاثة من العلماء يمثلون المذاهب الفقهية المشهورة وكانوا يقومون بوظيفة الفتيا وتفقيه الناس . وبعد ذلك تم تعيين مفتي عام للسُّودان في الخرطوم كما تم كذلك تعيين مفتيين في المديريات وقد قام هؤلاء المفتون بدور كبير في نشر العلم الشرعي الاسلامي واللغة والأدب حيث كان اتصالهم بالناس مباشراً ويشير كثير من الباحثين إلى ازدهار اللغة العربية وعلومها في هذه الفترة وذلك نتيجة لوجود المدارس التي اكسبت العقول ثقافة ونضجاً انعكس على شعر الشعراء ومن ذلك القصائد التي قيلت في مدح محمد رؤوف حكمدار السُّودان والتي قيلت بمناسبة الاحتفال بامتحانات مدرسة الخرطوم في 18 من شعبان 1297هـ الموافق 1880م . وكان الحكمدار قد حضر ذلك الاحتفال وألقيت تلك القصائد من قبل الطلاب والمدرسين [77] .

وقد سبقت الإشارة إلى اهتمام الحكمدار جعفر باشا مظهر بالعلم والأدب والتفاف العلماء والأدباء حوله وتشجيعه لهم من حيث انهم اصبحوا يرسلون انتاجهم لينشر في الصحف المصرية .

ثانياً : المستوى الشعبي :-

أما على المستوى الشعبي فقد استمر الطلاب في هجرتهم إلى أرض الكنانة للتزود بالعلم وبعد عودتهم إلى ديارهم يقومون بنشره بين الأهالي . ومن أمثلة هؤلاء الشيخ أحمد الأزهري الذي ذهب إلى مصر وقضى بها فترة طويلة وأصبح من أساتذة الأزهر ثم رجع إلى بلاده حيث قصده الطلاب من أماكن بعيدة[78].

كما استمرت المساجد في أداء رسالتها من تحفيظ للقرآن ونشر لعلوم الشريعة . ومن المساجد التي عمرت في هذه الفترة مسجد الخرطوم، الجامع الشريف بدنقلة، الجامع العتيق بالأبيض، مسجد سنار، مسجد قرية عبود بالجزيرة، مسجد المسلمية، مسجد مروي، مسجد طوكر والمساجد التي بنيت في سواكن وغيرها [79] .

وبهذه المناسبة نذكر أنّ ممتاز باشا عندما كان حكمداراً على السُّودان أوقف صرف المكافآت التي كانت تعطى للعلماء بحجة ضبط الميزانية ثم أعيد صرف هذه المكافآت والاعانات إلا أنّ غردون باشا قد أوقف صرفها بعد تعيينه حكمداراً عاماً على السودان .

هذا ما كان عليه أمر الحياة العلمية في السُّودان في العهد التركي، والباحث المنصف يلمس نهضة وتطوراً في مجال التعليم في هذه الفترة . وقد أشاد بهذه النهضة عدد من الكتاب السودانيين منهم محمد أحمد الجابري في كتابه في شأن الله أو تاريخ السودان كما يرويه أهله حيث يقول ولم تقتصر نهضة السودان

---

[77] أنظر د . عز الدين الأمين – تراث الشعر السُّوداني – مرجع ، سابق ص48.

[78] أنظر حسن سيد أحمد المفتي – تطور نظام القضاء في السُّودان – أمدرمان 1958م ، ص102.

[79] أنظر د. شوقي الجمل – تاريخ سودان وادي النيل – مرجع سابق ج2 ، ص145.

على النواحي الاقتصادية والاجتماعية فحسب بل سجلت هذه النهضة الناحية الفكرية فكان عهد التركية السابقة فتحاً جديداً في تاريخ الفكر السوداني إذ استيقظ الفكر السوداني في ذلك الوقت من سباته فتحرر من كابوس الخيالات الأولى التي تشبه هذيان المرض وأوهام الاطفال ونفض عن نفسه ما كان يساوره من فزع وهلع ازاء مشاهد الطبيعة وأحداثها .

"فبفضل انتشار التعليم وانشاء المدارس ودراسة العلوم الفقهية والرياضية وبفضل تعيين الأهالي في وظائف الحكومة الإدارية وبفضل ارسال البعثات للخارج صارت تتسابق الناس إلى دور التعليم والانتساب إلى العلماء والفقهاء "[80] .

وممن أشاد بهذا الجهد من الكتاب المصريين الدكتور شوقي الجمل إلا أنه أخذ عليه بعض المآخذ منها أنّ هذا التعليم لم يكن سائراً على خطة معلومة كما أنّ هذا التعليم لم يتصف بالصفة الدينية [81] .

[80] محمد أحمد الجابري – في شأن الله أو تاريخ السودان كما يرويه أهله – دار الفكر العربي – القاهرة 1947م ، ص38-39.

[81] أنظر د. شوقي الجمل – تاريخ سودان وادي النيل – مرجع سابق ج2 ، ص146.

الخاتمة

يمكن لي من خلال هذا الاستعراض لمسيرة الحياة العلمية أن اسجل الملاحظات التالية :-

1- إنّ التعليم خلال هذه الفترة شهد نهضة كبيرة على المستويين الرسمي والشعبي وفي جميع المجالات تقريباً قياساً على ما كان عليه قبل هذه الفترة .

2- هذه النهضة التعليمية والتوسع في افتتاح المدارس لم توضع لها سياسة واضحة تحكم مسارها وتحدد أهدافها مثلما كان في مصر وانما كان الأمر متروكاً لمبادرات الحكام وتوجهاتهم .

3- كانت هذه الفترة بداية الفصام في السياسة التعليمية والتي استمرت إلى اليوم حيث جعلت مؤسسات التعليم المدني موازية لمؤسسات التعليم الديني وكانت هذه التجربة منقولة من التجربة المصرية، ومن الآثار السيئة لهذه التجربة ظهور العلمانية في مجال التعليم التي ما يزال التعليم في السودان يعاني منها . ولو قامت الإدارة المصرية في السودان بتوحيد التعليم المدني والشرعي لكان السودان في غنى عن المشكلات التي يعاني منها اليوم ، ولكن الذي حدث هو أنّ المدارس المدنية – مثلما هو في مصر تخرج أجيالاً لاصله لها بالدين الا نادراً وأن المعاهد والمدارس الدينية تخرج أجيالاً تفتقر الى العلوم العصرية مما أحدث ثنائية سيئة في بيئة المجتمع الواحد .

4- سمحت الدولة للمؤسسات التبشيرية بإنشاء تعليم كنسي كان له أثر سلبي على أبناء المسلمين.كما ان هذه المؤسسات البشيرية ظلت تنفث سمومها ضد الاسلام وحضارته عبر مدارسها ومؤسساتها التعليمية .كما أوجدت هذه المؤسسات شريحة من المتعلمين غريبة الولاء أحدثت شرخاً واسعاً في المجتمع السُّوداني المسلم . وهذه الطريقة السيئة التى اختطتها الادارة المصرية بالسماح للمؤسسات التبشرية بإنشاء تعليم خاص بها ما تزال قائمة الى اليوم . وهذه المؤسسات التعليمية الكنسية لا تخضع في الغالب لنظام التعليم في الدوله وبعد أنّ كانت في الماضي قاصرة على أبناء النصارى أصبح يدرس بها اليوم قطاع كبير من أبناء المسلمين. مما يجدر ذكره أنّ جميع المؤسسات التعليمية التى أنشئت خلال العهد التركي قد توقفت ابان فترة المهدية الا أن بعضها استانف نشاطه بعد ذلك .

المراجع

(1) **إبراهيم الحاردلو** – الرباط الثقافي بين مصر والسُّودان – دار جامعة الخرطوم للترجمة والنشر والتأليف 1977م .

(2) **أحمدبن الحاج أبو علي** – مخطوطة كاتب الشونة من تاريخ السُّلطنة السنارية والادارة المصرية – تحقيق الشاطر بصيلي عبد الجليل – دار احياء الكتب العربية 1961م.

(3) **أحمد عزت عبد الكريم** تاريخ التعليم في عصر محمد علي مكتبة النهضة المصرية 1938م .

(4) **حسن أحمد إبراهيم**– رحلة محمد علي باشا إلى السُّودان 1838-1839،كراسة رقم 15– معهد الدراسات الافريقية والآسيوية – جامعة الخرطوم 1980.

(5) **حسن سيد أحمد المفتي**– تطور نظام القضاء في السودان– أمدرمان 1958م .

(6) **حسن مكي محمد أحمد** – السياسة التعليمية والثقافة العربية في جنوب السودان – المركز الإسلامي الأفريقي بالخرطوم شعبة البحوث والنشر 1983م.

(7) **حسن مكي محمد أحمد** – جذور وابعاد التبشير المسيحي في العاصمة المثلثة – المركز الإسلامي الافريقي بالخرطوم – شعبة البحث والنشر – كراسة رقم 1 .

(8) **رفاعة رافع الطهطاوي** – الأعمال الكاملة، تحقيق د . محمد عمارة – المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1973م ج 1.

(9) **السيد يوسف نصر** – الوجود المصري في افريقيا في الفترة من 1820 – 1899م. دار المعارف – الطبعة الأولى 1981م .

(10) **شوقي الجمل** – تاريخ سُّودان وادي النيل – حضارته وعلاقته بمصر منذ أقدم العصور إلى الوقت الحاضر – مكتبة الانجلو المصرية 1969م ج2.

(11) **صلاح الدين المليك** – شعراء الوطنية في السُّودان – دار التأليف والترجمة والنشر _ جامعة الخرطوم 1975م.

(12) **عبد العزيز أمين عبد المجيد** – تاريخ التربية في السُّودان – المطبعة الأميرية بالقاهرة 1949م .

(13) **عبد المجيد عابدين** – تاريخ الثقافة العربيه في السُّودان منذ نشأتها الي العصر الحديث – دار الثقافة للطباعة والنشر ، بدون تاريخ .

(14) **عز الدين الأمين** – تراث الشعر السُّوداني – معهد البحوث والدراسات العربية – القاهرة 1969م.

(15) **عز الدين الأمين** – قرية كترانج وأثرها العلمي في السُّودان – دار جامعة الخرطوم للترجمة والتأليف والنشر الطبعة الأولى 1975م.

(16) **عبد الرحمن الرافعي** – عصر محمد علي مكتبة النهضة المصرية 1956م .

(17) **محمد إبراهيم أبو سليم** – تاريخ الخرطوم – دار الجيل بيروت – الطبعة الثانية 1979م.

(18) **محمد إبراهيم أبو سليم** – دور العلماء في نشر الإسلام في السُّودان .. المنشور في المجموعة الأولى من ابحاث معالم تاريخ السُّودان – دار الفكر للطباعة والنشر – بدون تاريخ .

(19) **محمد أحمد الجابري** – في شأن الله أو تاريخ السُّودان كما يرويه أهله – دار الفكر العربي – القاهرة 1947م.

(20) **محمد النور ضيف الله** – كتاب الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء فسي السُّودان – تحقيق وتعليق الدكتور يوسف فضل – الطبعة الثالثة 1985 – دار التأليف والترجمة والنشر جامعة الخرطوم.

(21) **محمد عمر بشير** – تطور التعليم في السُّودان 1898- 1956م ترجمة هنري رياض وآخرين – دار الثقافة بيروت 1970 .

(22) **محمد فؤاد شكري** – صفحة من تاريخ السُّودان الحديث – مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة العدد الثامن من المجلد الثاني، ديسمبر 1946م .

(23) **محمد فوزي مصطفى عبد الرحمن** – الثقافة العربية وأثرها في تماسك الوحدة القومية في السودان المعاصر – الدار السودانية 1972م .

(24) **نعوم شقير** – تاريخ السُّودان – تحقيق محمد إبراهيم أبو سليم دار الجيل – بيروت 1981م .

(25) **يوسف خليل يوسف** – القومية العربية ودور التتريك في تحقيقها – الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة 1966م.